المفهوم الاخر للاستشراق ضمن رؤى معاصرة

مهند عبد الرزاق عبد القادر

٢٠١٣

اشراف الاستاذ الدكتور صدام فهد الاسدي

الاخر نقيض المتقدم ، يقابل الاول ، و هو اسم لفرد لاحق لمن تقدمه و لم يتعقبه مثله ، جمعه اخريه ، و تأنيه اخرة بالتاء لا غير و جمعه اواخر و يأتي ايضا بمعنى الغائب .

و مما جاء في القران الكريم قوله تعالى : ((و اخرين لما يلحقوا بهم)) [1] **، و قوله تعالى : ((انا يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار))** [2] **، و قوله تعالى : ((اذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون))** [3] **.**

ان الايحاء المفاهيمي لهذه المادة اللغوية في سياق الاعتبارات القاموسية قد توحي بمفاهيم سلبية ، تتواصل مع السلبي ، تتماهى مع المأساوي ، تتجاذب مع الظلامي في الفكر في الحياة في السلوك في الثقافة فهي نقيض المتقدم ، ان دلالة المادة او دلالاتها السلبية هذه قد تساهم في توظيفها للاشارة الى حالات مرفوضة في ثقافة معينة او تصورات مدانة لدى مدرسة فكرية مسماة ، او مواقف غير مستساغة لدى اتجاه ذوقي خاص ، و بالفعل فان مفردة (التأخر) اصبحت علامة اصطلاحية تقريبا على التراجع ، و على التخلف و على معادة التقدم و التطور و على الانشداد للماضي لمجرد انه ماض ، من

---

[1] - الجمعة الاية ٣

[2] - ابراهيم الاية ٤٢ .

[3] - يونس الاية ٤٩ .

هنا ايضا قد تكرس موقفا سلبيا تجاه الاخر ، الاخر الثقافي و الديني و الفلسفي و الحضاري و الجغرافي ...

فان الدلالة السلبية هذه قد تسوغ اطلاق مادتها اللغوية على المقابل الذي يختلف معي او يضادني او يفارقني انه اخر .

لذلك فان قراءة واقعية للتاريخ الانساني و معرفة علمية دقيقة و واعية للاسباب و الدوافع و النتائج التي اثرت في تشكيل الوعي المعرفي لحركة التاريخ و كشف و تسليط الضوء على الثقافة الغربية و الية منهجية السيطرة على الاخر وفق ارادة تمليها القوة و السلطة سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا .

ان المفهوم الاخر عن الشرق لدى الغرب هو حتمية تاريخية تحكم مفكريه فالغرب ينظر وفق رؤى و اشتراطات تاريخية و دينية و اقتصادية و بنى تصوراته حسب تلك الرؤى و يؤسس منهجه عن الشرق اللامتغير و الشرق التاريخي هذه النظرة الفوقية المتجزرة للقوة و المعرفة و الانشاء الذي ولد من هذا الرحم .

فان الخوف من الاسلام و اعتباره هو (العدو) للحضارة الغربية و الحضارات الاخرى اصبح قائما على اساس نظرية متكاملة لها جذور تاريخية قديمة اكتملت و تبلورت على يد صامويل هنتنجتون استاذ الدراسات الدولية

في جامعه هارفارد ، الظرية اذن نظرية امريكية .. و هي في حقيقتها ليست الا تبريرا فلسفيا للحرب ضد الاسلام .. و قد ينكر بعض الامريكيين انهم يعتقدون صحة هذه النظرية و لكن ما تفعله امريكا الا التطبيق العملي لها ، فالمفهوم الغربي في هذا القران - كما عبر عنه هنتنجتون و كما ترى في كتابات المفكرين و المحللين و تصريحات السياسيين و مواقف الدول الغربية و كما نرى على ارض الواقع - هو حوار بالصواريخ و الطائرات و القنابل الذكية و الة الحرب الهائلة التي تترك لتدمير دول اسلامية و الدليل على نظرية صمويل هنتنجتون ما نراه في تدريس التاريخ للتلاميذ في امريكا و الدول الغربية من تصوير المسلمين وفقا لانماط ذهنية ثابتة في الوعي الامريكي و الاوربي تعكس التحيز و فقدان الموضوعية عند الحدث عن الاسلام و المسلمين .

ان الاستعمار الذي حاول الهيمنة في القرن ١٨-١٩ على الشرق و محاولة العولمة في اختراق ثقافة الاخر و الغاء موروثه باستبداله بقيم هي تعميمها من المركز الى الاطراف فهي مشروع لمصادرة ثقافة الاخر فالخروج من هذا السياق التصوري بحاجة الى حوار واقعي يميط اللثام عن الموروث الثقافي و التاريخي و التراكم الثقافي من اكتشافات و ملاحم و منجز ابداعي في كل حقول المعرفة ساهم فيه الشرق و قدمه للانسانية ففهم الهوية و الذات و

اشكالات اخرى يوصل الى المعرفة الحقيقية و الرؤيا الحقيقية للتاريخ لا يختلف اثنان على ما قدمه الشرق من منظومة قيم و رؤى تاريخية ساهمت في تشكيل الوعي في الثقافة الانسانية ، الا ان واقع التاريخ لا يسير باتجاه ما يرسمه له المخططون و الساسة و الاستراتيجيون بشكل مطلق الا ان هذا وفقا لسنن كونية تتدخل لرسم مصلحة مسار خاص للانسان و ليس كما يريد الاخر .

و قد اعجب المستشرقون بعظمة الرموز العربية كالرسول الاعظم (محمد صلى الله عليه و اله و سلم) و شخصية الامام علي (عليه السلام) و كذلك بالمنجزات الحضارية العربية بكل ابعاد المعرفة .

المفهوم الاخر في الاعمال المسرحية الغربية ، مسرحية العاصفة لشكسبير – انموذجا – و اذا كان يفترض في الاعمال المسرحية ان تكون زاخرة بالقيم الانسانية الجليلة و حافلة بمباديء الحرية و العدالة فانها على النقيض تماما قد تضمنت جوانب قبيحة و مرعبة تجسدت في دعم رغبة المجتمع الغربي في التوسع الامبريالي اذ مثلت معادلة قوامها افضلية الذات الغربية تفكيرا و فنا و دونية الاخر ثقافة و عرقا لتصوغ بذلك صورة للاخر وفق رؤية خاصة توافق المنظور الغربي المتمركز على ذاته ثقافيا و فنيا و هي صورة (

الخامل ذهنيا) و (الوحشي) و (الدوني) و (المتخلف فنيا) و في اضفاء طابع العالمية و سمة الكونية على النموذج المسرحي الغربي .

و لا غرابة ان تجاوزت التجربة الامبريالية البواعث الاقتصادية و الدوافع السياسية لتطال الحياة الفنية المسرحية الغربية ذلك ان اغفال بسيط الامبريالية لذاتها عبر الدين و العلم و الفن و الادب سيكون قراءة خاطئة للثقافة و لرنينها الامبراطوري ان الكشف عن الرنين الامبراطوري في الاعمال المسرحية الغربية و قراءته قراءة تأويلية خاصة و بوعي نقدي متفجر و لا مهادن يتقاطع فيه الفني بالادبي و السياسي و التاريخي و الاجتماعي عبر الربط بين الامبريالية باعتبارها وجهات نظر و تمثيلا خاطئا للاخر ، و قد جسدت مسرحية (العاصفة) ل (وليام شكسبير) ارتباطا و تلازما بين الظاهرة الامبريالية و الظاهرة المسرحية اذ لم يكن شكسبير بمعزل عن السياق الثقافي الغربي العام الممجد للحضارة الاوربية و المشيء الساكن الاصلي للبلاد المستعمرة كما بلورته تقارير المستكشفين و الرحالة الاوربيين .

يرتبط النص الشكسبيري من هذا المنظور بواقع تاريخي سياسي شكل خلفيته و لعل اغفال هذا الواقع من شأنه ان يجعل استقبالنا للنص ناقصا سيما انه لم يعد ممكنا و مقبولا بتر الادب عن التاريخ .

و بذلك فان استراتيجيتنا في تحليل مسرحية (العاصفة) سيكون هدفها الاساس تبيان ما كان مغيبا و ناقصا في القراءات السابقة .

تحتل شخصية (بروسبيرو) البؤرة فيها فهو امير ذو سلطان انهمك في دراسته فاقدم اخوه بالستيلاء على مملكته و طرده فوجد (بروسبيرد) نفسه رفقة ابنته (ميراندا) في زرق لم يبق منه سوى هيكل متفسخ هكذا ترك (بروسبيرو) عالمه المتمدن و شد الرحال مكرها الى عالم اخر عالم الجزيرة الغريب و (كاليبان) و هو (عبد وحشي ممسوخ) انه الساكن الاصلي للجزيرة الذي اغتصبته ارضه ، فاضحى عبدا بعد ان كان سيدا عقد فقد (كاليبان) الساكن الاصلي ارضه المغتصبة من قبل (بروسبيرو) الانسان المستعمر و اتخذت العلاقة بينهما علاقة تبعية و تلقين للقيم و النظم الثقافية الغربية .

فـ(كاليبان) في منطق النص الشكسبيري لا حقوق له فهو من منظور (بروسبيرو) عبد و في رؤية (ميراندا) نذل قبيح و ليست تلك هي الصفات

الوحيدة التي تميز بها (كاليبان) بل ثمة رزمة من الصفات المشينة له من قبيل : غبي ، نطفة شيطان ، سلحفاة ، نذل ، كذاب ، مخلوق الظلام ، جاهل ، خسيس ، قذر ، شهواني ، وحش ، دنيء ، عرقيا ، بذيء ، لا يجد فيه لطف

انها الرؤية الامبريالية التي ترسخت في الفكر الغربي و وشمت وعيه و القائمة على ثنائية ضدية اساسها : الطرق الغربي ، (بروسبيرو) صاحب رسالة التمدن و التحديث و مصدر كل الحقائق في هذا العالم و الطرف المستعمر (كاليبان) البدائي المتوحش و رجل الكهف و الغابة الذي يقتض وصاية ثقافية غربية ليلج عالم التمدن و دنيا الحضارة .

لقد اختزل (كاليبان) المستعمر ثقافيا و فنيا و اجتماعيا و عرقيا و هي الصور الشائعة في المدونات الاستشراقية و السرديات الاستعمارية انها النظرة الاستعمارية الاوربية التي شيأت اللااوربي و سلعته و نظرت اليه بوصفه مجرد (شيء) و (دوني) و (ذات لا ثقافية) و بذلك احتل الانسان المستعمر مكانة ثانوية مكانة شكلت مفارقة ضدية جوهرية بالنسبة للاوربي اذ تبرز تفوقه و غطرسته و سوغت سيطرته على شعوب ينبغي ان تخضع ليغدو الاستعمار في الفكر و الوعي الغربيين .

الحال ان شكسبير مشارك في سياسة التوسع الامبريالي و النزوع الامبراطوري من خلال سوء تمثيله للاخر غير الغربي اذ يمكن معاينة مسرحية العاصفة بوصفها مفعمة بسياسة استعمارية و تقوم باداء معركة امبريالية انها مسرحية تنطوي على عنصرية الغرب الكاملة و الملثمة اذ توحي بوجود ثنائية ضدية حيث الشمال و الجنوب و السيد و العبد و الثقافة و اللاثقافة ليكون النسق الثقافي المضمر فيها : تعزيز اقرار المجتمع للتوسع الامبريالي .

اذ يمكن للنصوص الدرامية ان تكون اعمالا عظيمة من ابداع الخيال و ان تضم في الوقت نفسه وجهات نظر سياسية ظاهرة البشاعة و القبح وجهات نظر تسلخ الانسانية من غير الاوربيين و تبرز شعوبا و اصقاعا باسرها خاضعة و دونية جاعلة اياها مقتضية حكم الاوربيين .